المثقف العربي ... صراع الاصلاح والاستبداد

قاسم محمد عباس

فاصلة

تطرح مشكلة المأزق الثقافي في العالم العربي هذه الأيام في سياق قراءة التغيير الحاصل في العراق. وكرد فعل على هذا التغيير، كتبت مجموعة دراسات ومقالات تركزت في مجملها على موقع المثقف العراقي في ما حصل ويحصل. واتهم المثقف العراقي بالسلبية المطلقة، واشاعة فكرة التغيير من الخارج. بفهم ان منطقا. يدعو الى التعاطي مع الطرح الأميركي والأوروبي للتدخل في المنطقة العربية باسم الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان، في وجه الأنظمة الشمولية، والأصوليات. يسود الجدل الحاصل حول الاصلاح، متخذين من الحادث العراقي انموذجا للاستدلال على شيوع هذا التصور عند اليساريين والليبراليين العراقيين تحديدا.
اتخذت هذه الآراء موقفا قفز على التداعيات التي تسببت بها الانظمة الشمولية عموما. وتراجع دور مجتمعاتها، وتجاهلت الفشل الذي تسببت فيه النخب التي تبنت المشروع القومي العربي، الفشل في بناء نظم سياسية ديمقراطية، تعد ضمانة أساسية لحماية الاستقلال الوطني ذاته، فضلا عن تقييد الطاقات الخلاقة للشعوب التي عاشت وتعيش في ظل الانظمة الشمولية.
ووصفت مواقف المثقفين العراقيين بأنها تكشف عن هشاشة بنيوية، متجاهلين بذلك حقيقة ان المثقف العربي في ظل الانظمة القومية والدينية ليس هو ابدا صانع اطروحات للنخب الحاكمة، وما له اي دور في صياغة رأي عام يؤثر في المجموع. والحال هذه بقي المثقف، منذ نشوء الدولة العربية الحديثة، اداة للتعبئة من اجل قضايا لا يتبناها هو. هذا لو استثنينا مجموعة جهود فردية يمكن تفسيرها باطلاع اصحابها على طروحات الاخر.
ان قراءة المثقف العربي لموقف المثقف العراقي من التغيير امر بحاجة الى اعادة نظر. قراءة يجب ألا تتجاهل الواقع العراقي بظروفه الاستثنائية، بفهم ان المثقف عموما في المنطقة العربية وبغض النظر عن كونه قوميا او يساريا، فإنه يخضع الى التغيير، بمعنى التراجع عن تبني مواقف سابقة وتبني مواقف جديدة، او حتى محاولة التصدي للمواقف السابقة، والغريب ان بعض المثقفين العرب فسروا الموقف العراقي من هذه الزاوية الملتبسة، ورفضوا النظر الى العيوب الحقيقية الكامنة في البنى الاخلاقية والدينية للأنظمة الحاكمة وللمجتمعات معا. واستعصى عليهم فهم فكرة التغيير الجذري ولو نظريا، حتى انهم يحسبون نتائج التغيير بالنسبة للمثقف على ما يمكن ان يحصل عليه من مكاسب. بل ان البعض راح يعير المثقف العراقي الذي لم يحصل على منصب او دور كبير في عملية التغيير، وكأن الخروج من جحيم الوضع السابق لا يمكن الاستدلال على شرعيته الا بوظيفة او منصب مادي.
ان المشهد عموما بحاجة الى توصيف من الناحية النظرية، بفهم اننا فعلا امام موقف تبناه المثقف العربي من الحادث العراقي يتوزع على نظرتين لا تسمحان بوجود تدرجات بينهما: الاول يتركز في مشروعية التعاطي مع التغيير الحاصل، للخروج من مناخ التخلف والبطالة والفقر والامية والفساد،عبر مؤازرة المشروع الديمقراطي الاخذ بالانتشار، ودفع عملية الحكم الديمقراطي، والايمان بفرصة وجود بناء مجتمع حديث، يسمح بالفرص الاقتصادية، ونشر العلمانية ومحاربة الفكر المتخلف.
اما الموقف الثاني فهو الرافض لهذا التغيير منطلقا من موقف المؤامرة، ورفض الغرب بكل مستوياته، عقليا وثقافيا.
وحدث ان الموقف الاول المؤيد للتغيير فسرعلى انه انحياز للغزاة (على حد وصفهم)، حتى انهم وصفوا موقف بعض المثقفين العراقيين اصطفافا مع المحتل بعد ان تم تجريده (أي المثقف العراقي) من اي موقف نقدي، متجاهلين ان المثقف المعني بالتغيير، يجد هذا الموقف اسوأ من الاصطفاف مع النظام السابق.
ان غياب التوازن في هذه النظرة، دفع الكثير من المثقفين العرب الى نقطة تناقض كبيرة يعيشونها في بلدانهم مع حكوماتهم ومجتمعاتهم، ففي الوقت الذي يصفون موقف المثقف العراقي بالموقف الهش، فانهم حقيقة يتجاهلون حيرة هذا المثقف بين الدكتاتور والمحتل، اللذين فرضا عليه بقوة الواقع والسلاح، فضلا عن ان المثقف العربي بعد سقوط نظام بغداد الدموي، أصيب بحالة من اللاتوازن وراح يبرر لنظامه الذي يحكمه، ويقف في وجه الاصلاح والديمقراطية، بدعوى انها قادمة من الغرب، وعاش المواطن العربي مع هؤلاء حالة من الاحباط والخيبة، بل ذهب الكثير من هؤلاء الى اعادة انتاج الاستبداد والفساد في بلده في قراءات متعسفة عناوينها لعن الغرب وامريكا والعولمة، ووصم الاصلاح بشتى اوصاف المؤامرة، ولم يتمنكوا من ايجاد علاقة بين الغرب الغازي والفساد المستشري في البلدان العربية، او شرح العلاقة بين الاستبداد والتعصب والهلوسة الفكرية والتخلف والانحطاط وبين الغرب الذي منحهم شهاداتهم والقابهم. واستفادت الانظمة الحاكمة من هذا الموقف واستثمرته بكل قوة ودفعت بهؤلاء للوقوف في وجه دعاة الاصلاح . على قلتهم . في بلدانهم، لينتهي الامر الى حالة من الابتزاز المتبادل بين المثقف وهذه الانظمة.
ان تضييق العلاقة مع الغرب في محور الصراع والعداء اجتزأ المشهد ، وقدمه بصورة مشوهة في تصور محدد تتفق فيه الحكومات مع هؤلاء المثقفين في محاربة التغيير، عن طريق ادامة الصراع ، والتركيز على الهوية القومية والدين، ليختزلوا ما يحصل على ارض الواقع في مفاضلة بين القبول بالتخلف والاستبداد او القبول بالتغيير من الخارج. وتم تسطيح صورة الرافضين للاستبداد بوصفهم عملاء ومروجين للمنطق الامريكي، وصار كل من يتحدث عن رفض الاصلاح والقبول بالمستبد بوصفه مناضلا شريفا مدافعا عن الامة وقيمها.
في ظل هذا لمشهد العبثي يمارس المثقف العربي قراءة منقوصة للوقائع، في ظل ارتفاع اصوات المطالبين بمقاومة المحتل، وصمت دعاة الاصلاح، التبس الواقع العراقي على المواطن العربي الذي يعيش اساسا تناقضا بين ما يفكر فيه وبين ما يحلم به .
لتتسع الفجوة بين المثقف والنظام، النظام الذي ينشد الاستقرار والاستمرار، والمثقف الذي يحتكم لموقفه التقدي الذي يدفع تجاه التغيير والتحولات التي يفرضها الواقع بقوة. لنجد انفسنا في ازمة حضارية تعيشها مجتمعاتنا: مثقف حائر متذبذب منافق، وانظمة عاجزة، ومجتمعات مشوهة.
بين اصلاح من الداخل محال، واصلاح من الخارج مخيف: تتوزع مواقف الكثير من المثقفين العرب. ان تحليل مقولة الاصلاح من الداخل تعيقه الكثير من الوقائع الصادمة. وبانت بوادره في الكثير من البلدان العربية، حتى اتضح للمواطن انها كلمة حق يراد بها باطل، والا كيف تفهم مقولة ان الاصلاح ان لم يكن داخليا فهو مرفوض من الخارج، بفهم ان هذه الحكومات بصدد حفظ ماء وجهها، كي لا يقال انها استسلمت للضغوطات الغربية، فضلا عن رعب مشهد سقوط تمثال صدام الذي قض مضاجع الكثير من الحكام وافقدهم توازنهم.
ولو تمت قراءة الحادث العراقي بدقة لتوصل المثقف العربي الى حقائق عدة منها : ان القبول بواقع المستجدات والتغيير الذي حدث في العراق بتلاحق كبير، لا يمكن ترجمته في مقابل سقوط الهوية والوطنية، مع فهم ان ما حدث في العراق جزء اساسي من مشروع شرق اوسط جديد سيكون في واقع الحال على حساب هوية المنطقة عموما وليس العراق فحسب. المطلوب من المثقف العربي الا يستمر في التلصص على المشهد العراقي بهذه السلبية متأرجحا بين التردد والخوف، وامامه فرصة كبيرة للتحرر من ضيق نظرته التي تكبله. اننا بحاجة الى التحصن بواقع ثقافي جديد مناهض وتغييري، الى اعادة النظر في موقع عقلنا الراهن، كي لا يندفع هذا المثقف الى موقع التنازل الجوهري عن حقه في التاريخ والصيرورة. على المثقف العربي ان يتخلى عن الايمان بالوهم، الوهم الذي خلفه سقوط صدام، الا ينبذ نفسه وينبذ الاخرين، الا يفقد النظرة الواقعية التي تسمح بقراءة المتناقضات والمتغيرات في آن واحد. ان يؤمن بقدرة الثقافة على التغيير شرط الايمان بتحديثها، ان اعادة محاكمة ثقافتنا وواقعنا محاكمة عقلية شاملة لن تجعلنا خارج هوياتنا، ولن تفقدنا ايماننا بوجودنا على الارض.
ان الاحساس بالضعف والهزيمة الذي يغلف شعور المثقف العربي لعل مردّه نظام القوة الذي يحكم العالم ولا يشارك فيه هو.
ان السعي الى تغيير مناهج التعليم السائدة لا يعني انسلاخنا من ثقافتنا، والاصطفاف مع المشروع الامريكي، والدعوة الى تعليم حداثي لا يعني بالضرورة التقاطع مع الدين والقومية، كذلك الدعوة لقيام مجتمع مدني لا يتقاطع مع قيام المؤسسات الدينية والقومية.
ان اختيار حالة الاستقرار المحصورة بين صورة الاحتلال والفوضى التي تنقلها شاشات الفضائيات، والتشاؤم من ضبابية الافق المنظور، يجب ان لا يغطي على فعل العنف المريض الذي يترجم بالمقاومة هنا وهناك، ولا يعني هذا بأي شكل من الاشكال الانغماس في المشروع الامريكي، على الرغم من ضغوطات الواقع المتعلقة بحياة الملايين من العراقيين.

من ايام خلت الى ايام اغسقت

حياة شرارة.. ضفيرة الوعي السياسي والفعل الثقافي

للشهيد قاسم عبد الامير عجام

(٢)

((الكذب لا مكان له في المجتمع ناهيك عن الكلية)) / الرواية . ص١٧٦).. هكذا وكأن المدرسات في الكلية يعشن بطالة او كذبا مع انهن يشكون تعليمات النصاب التدريسي الذي يحملهن اكثر مما يحتمل الرجال. واذا كان ذلك الرأي رداً على مدرسة شابة شكت من عدم معاونة الاساتذة لها في عملها البحثي فاتهمها العميد بالافتراء، فان الاساتذة الذين اخرسهم الخوف لم يجدوا سوى التظاهر بالعطف المبطن باللوم للمدرسة الشابة لجرأتها على التعقيب على العميد او اقتراحها سياقا عملياً ارتأته فأحاطوا بها ليلقوا عليها ذلك التعالي الكاذب:
" لاتعيريه بالاً" أو "لماذا اصطدمت به يا ابنتي!" او " كيف ترفعين يدك وتطلبين الكلام" / (١٧٦. الرواية).
فلم تجد سوى ان "تجهش ببكاء حار مهزوم". فيتكرم الراوي/ السارد بالقول انه لم يتحمل سماع بكائها فترك القاعة مع الاساتذة "الذين ظهر رثاء اخرس على وجوههم وهم يغادرون المكان في وجوم"! ١٧٦
تلك الصورة كما نرى رثاء مزدوج للرجال وللنساء وهو يعزز اشارتنا السابقة الى وعي المبدعة لقضايا مجتمعها وهو ما سنراه باشكال اخرى ما يجعل خطابها الروائي الذي احالته او رحلته على لسان الرجال ممارسة لذلك الوعي، فليس في ذلك الرثاء للمجتمع الذكوري شماتة امرأة مهمشة وانما هو كشف منحاز لواقع مجتمع مهزوم.
فان تلك الاجتماعات التي كان يقودها العميد او رئيس القسم لم تكن سوى وقائع هزيمة للمستمعين/ الأساتذة الذين يعرفون ان عليهم الاستماع فحسب، اذ لم تعد الكلية مكاناً للعلم. وعلى من فيها ان يخاف من اقرب الناس اليه إذ "لم يعد هناك أمان ولا مأمن لأحد"/ الرواية -١٨٢,
ولذا يقر السارد بأنه يشعر بعد تلك الاجتماعات "بالضجر والاستياء والهزيمة".. ومع ذلك يرى في الشابات من المدرسات ما يدعو للرثاء لهن او العطف عليهن "لأنهن لم يختبرن الحياة بعد ويرين وجهها الصدئ ومازالت الآمال والأحلام تعمر قلوبهن". حسناً فماذا حصد الذين (اختبروا) الحياة سوى الهزيمة والإقرار بها؟ انه رثاء ممن يستحق هو الرثاء وكان الاولى بالدكتور نعمان ان يرثي نفسه. ولعله كان يقصد ذلك حين يقر ان صورة المدرسة الشابة المفجوعة بسماجة العميد وغطرسته تطارده ويتوقع ان تظهر له صورتها في نومه وتحزنه وتجعل كل شيء مظلماً من حوله ويحس بوجود عناصر شريرة تريد الايقاع به وتحطيمه! (الرواية . ١٨٢). لكن هذا الرعب تم ترحيله بفعل المكابرة الرجولية الى عطف ومواساة لائمة للشابة!!
وعلى المنوال نفسه نثرت الروائية الموقف الذكوري للمجتمع الخائف من المرأة حتى وهي تعمل، إذ نرى في (زاهدة) احدى مدرسات القسم الذي حدثنا عنه د. نعمان سوى المرأة (الحبوبة) الخدوم التي تعطر جو الغرفة بحضورها وتشيع جواً أسرياً بخدماتها لزملائها من تحضير الشاي الى اعداد الجلسة حول المدفأة الغازية!!. اما اختصاصها العلمي، طريقتها في التدريس، مساهماتها وهي التي تتمنى ان تشارك طلابها في نشاطاتهم الجامعية (ص٩٦) فلم نعرف عنها شيئا من خلال سرد الدكتور نعمان للاحداث، وانما اضاف لتأكيد خدماتها (المنزلية) انها "تحب المرح والمزاح. انه طبع فيها وهي ترطب من جفاف التدريس والتوتر الذي نتعرض له"/ ص٩٧, ولعله إذ يشجع على مشاركتها بفعاليات الطلبة فانطلاقاً من (مواهبها) تلك باعتبارها مرطبة جفاف ومخففة توتر!!
لاشك في انها رؤية ذكورية للانثى، والمأساة انها رؤية تصدر عن محور الرواية وعينها الرائية وما كان يمثله من رفض لمجتمع الخوف والهزيمة امام الاستبداد! غير انها تبقى اساساً رؤية مجتمع سحقته الوان من القمع والمخاوف.
وبمثل تلك الرؤية قدمت شخصيات نسائية اخرى في الرواية . وهي قليلة عموماً . لاسيما شخصية (منى) سكرتيرة القسم. فقد قدمت من خلال دور قمعي اسند اليها إذ "كانت منى ملزمة بأن تمر على القاعات بعد مضي عشر او عشرين دقيقة على بداية كل حصة وتأخذ ورقة تسجيل غياب الطلبة" وكان ذلك الدور يضايقها وتحس بثقله. غير ان السارد لم يتوغل في دواخل هذه الشخصية مع انها كانت تحس بالقمع لادائها تلك المهمة (القمعية)، بل لم يلبث بالرغم من تلك الاشارة العابرة الى احساسها بثقل مهمتها تلك على نفسها، لم يلبث ان انتقل اليها كامرأة صغيرة تذكره بشبابها كطالبة مجتهدة وان ينظر اليها كربيع ضاحك وان سارت الى جانبه، فكما يسير (ربيع ضاحك) الى جانب (شتاء رمادي) كناية عن كهولته، او ان يراها (نجمة مضيئة) الى جنبه هو (النجم الآفل) ويجد في مجاملته لها بهجة لما تثيره في نفسه من جمال الشباب وجمال الطبيعة! ولما تستطيعه من تغيير في جوه الكئيب، وان تخلق له البديل المناقض لمنغصات العمادة البيروقراطية المتغطرسة! ولذا يبقى بعدها صوتها الحنون الودود "في حنايا نفسي يملؤها بدفء الجنس اللطيف ونعومته التي طغت على الزوايا المعتمة المشوشة في داخلي" / الرواية ص٩٣ . ٩٤!
اما معاناتها، رؤيتها للكابوس الذي يجثم على د. نعمان وعليها معاً فلا يتوقف عندها السارد! وحتى اذا عادت هاتان الشخصيتان، زاهدة ومنى، للظهور في ثنايا الرواية فبصورة لا تختلف عما اشرنا اليه، وبمهام لا تختلف عن (مهامها) تلك المعطرة لجلسات الاساتذة!!
هذا التغييب للمرأة في الجو الجامعي الذي رسمته هذه الرواية ببراعة، تشغيل آخر لجدلية الغياب/ الحضور أو المعلن والمضمر، فقد عبر عن وعي المؤلفة لحجم التغييب الساحق لبنات جنسها الذي يمارسه مجتمع خائف مقهور بالغطرسة والافقار والحرمان المتجدد باشكال تزداد قسوة؛ فشحنت وسيلة التعبير عنه بقوة اكبر دلالة حين رسمته تغييباً في مجتمع يفترض انه الأرقى عقلاً والأرحب حرية ليثير سؤالنا الانكاري.. فكيف هو الحال إذن في مجتمع أمي مثقل بعوامل انحرافه واخلاقيات البداوة والمنفعة؟!
بتلك الطريقة صار الحضور المحدد.. الأقرب للغياب وسيلة لعلو الصوت الذي تدين به المرأة تهميشها وحصرها في انوثتها..
وكي يتصاعد هذا الصوت ويشتد في ادانته لتهميش المرأة وغضبه عليه كان لابد من حضور نموذج آخر للمرأة التي تشق طريقها في ذلك المجتمع المنافق المهزوم بالخوف والبحث عن مهرب.. فكانت شخصية الدكتورة عدوية!!
والدكتورة عدوية منذ دخولها فضاء الرواية (ص١٩٧) تفجراً جواً فضائحياً لا يتفق مع أي مجتمع محترم فما بالك بالمجتمع الجامعي!؟
واركان الفضيحة في وجودها ليست مقصورة على علاقاتها مع اهل السلطة خارج الكلية، ولا في سلوكها الذي يعلن عن حقيقتها بل وتعتبره القدوة التي يجب أن تقتدى حتى لتخاطب د. نعمان بعد أن رأته حزيناً داعية اياه الاّ ينشغل بأفكار وقضايا مؤرقة بل "انظر الي واقتد بي"/ (ص١٩٨)، وانما الفضيحة في (القدرة) التي تمنحها لها تلك العلاقات الشائنة على التأثير داخل الكلية وخارجها فتتباهى بقدرتها تلك إذ تقول "لا أحد يستطيع ان يحل المشاكل هنا غيري، حتى العميد يطلب مني العون عندما يستعصي عليه حل قضية معينة!"/ ص١٩٩, فيرد عليها رئيس القسم بمكر: "انت ملكة الكلية غير المتوجة، كلنا نعترف بذلك من دون استثناء"! ص١٩٩ فتمضي في اختيالها حين تقول . وكأن التتويج لابد منه . أن التتويج الرسمي لا يهمها فهو امر شكلي وهي معنية بالجوهر.

مسكويه فيلسوف الأدباء

مهدي النجار

من المفيد حين ندرس عطاءات أسلافنا المثقفين، أن نتذكر إن بيننا وبينهم أزمنة سحيقة وإن فضاءاتهم المعرفية غير فضاءاتنا المعاصرة، هذا التذكر يجنبنا المغالطات الاسقاطية، أي أسقاط مفاهيمنا الحديثة على ما أنتجوه من طروحات وتصورات، بمعنى آخر إن امكانيات أسلافنا العلمية هي إمكانيات أزمنتهم وظروفهم الاجتماعية وما كان بإمكانهم أن يتجاوزوها لذا لا يمكن ان نحاكمهم أو نتحاور معهم على وفق معايير عصرنا وآليات فهمنا الراهنة، هذا ظلم ما بعده ظلم، لأن لكل فترة من فترات التاريخ تصوراتها ومعاييرها الخاصة، فعلى سبيل المثال، نلاحظ سطحية التصورات "العلمية" التي توردها الفلسفة الكلاسيكية حول تطور الجنين والأنسان البيولوجي أو التصورات الخاطئة عن الأرض كونها مركز الكون أو عن الفلك والأجرام السماوية وعلاقتها بالتراتب الهرمي للعقول ووظيفتها. ليس مقصدنا هنا ان نبحث عن أصل تلك التصورات وفصلها، عن جنسها ونسبها، كل ما هنالك هو أن نسجل ملاحظة مهمة هي إن مثل هذه التصورات البدائية لا تلزمنا بشيء على الإطلاق في زمن تسارع الاكتشافات العلمية والتقنية وتصاعد وتيرة التقدم المعرفي الهائل خاصة فيما يتعلق بالتعرف على بنية الكون اللانهائية وعمره وتمدده اللامحدود، كذلك في مجال تشريح الإنسان وعلوم الأجنة والهندسة الوراثية.. الخ، لكن الذي يشعل النار في القلب هو هذا الترهل الثقافي الأجتراري الذي تنوء بكاهله الثقافة العربية الإسلامية المعاصرة والذي يتمظهر في خطابات مهلهلة ترقيعية مملة لم تصل الحد الأدنى من عمق وعقلانية خطابات الأسلاف زاعمة إن كل المعرفة والسلوك والعلوم قد تم انتاجها في الماضي وبالتالي لا تؤمن هذه الخطابات بأن هناك علاقة بين التراث الثقافي وبين الزمن الذي تم انتاجه فيه، أي لاتهتم كثيراً لا بالظروف الأجتماعية ولا بالزمن الذي أنتج هذه الفكرة دون تلك او هذا التصور دون ذاك، انها منهجية تعتقد بأن الأفكار تبقى كما هي منذ الأزل والى الأبد لكأن الأفكار لا تتأثر بالبيئة التي تنتجها وتنتشر بها او الزمن الذي يحتضنها من حيث الهموم والحاجات والامكانات وهي بالضرورة مختلفة من بيئة اجتماعية لأخرى ومن زمن لآخر.
تمايز العصر (القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي) الذي عاش به صاحبنا الأستاذ مسكويه (ابو علي احمد بن محمد بن يعقوب مسكويه ٣٢٥. ٤٢١ هجري/ ١٠٣٠.٩٣٧ ميلادي) بأن شهدت الثقافة العلمية والفلسفية المستلهمة من الأغريق أو المنقولة عنهم توسعاً نظرياً وأنتشاراً وأهمية ذات أبعاد أستثنائية في المناخ الاسلامي، من جهة ثانية نلاحظ وجود جو هائل من التسامح بالنسبة لتلك الفترة، وفي هذا الجو نشهد انتشار مختلف انواع المعارف والثقافات وتزايد تبادلها وتفاعلها وتبلورها.
إن شيوع مثل هذا التسامح في تلك الفترة القديمة يدهشنا اليوم خصوصاً إذا ما قارناه بما نشهده الآن من ضيق عقلي وانغلاق ثقافي وتزمت فكري في شتى انحاء العالم الإسلامي، وهذا يشير بوضوح الى وجود حركة فكرية عقلانية ونزعة انسانية (تضع الانسان في مركز اهتماماتها) بدأت تزدهر لفترة من الزمن، ذلك انها هزمت بعدئذ، أي بعد القرن الخامس/ الحادي عشر الميلادي، وقضي عليها من قبل الظلامية العقلية والانغلاق الفكري.
ان مسكويه كان ينتمي الى هذا التيار الواعد (العقلانية والنزعة الإنسانية) وقد أخضع بشكل واضح موقفه الديني الى القوة التساؤلية الجبارة للعقل، شعار مسكويه هو: العقل أولاً.
بجانب ذلك كان ينتمي الى الإتجاه المشترك لدى الصوفية والفلاسفة الذين يعتبرون ان معرفة الذات عن طريق "محاسبة النفس" هي الشرط الأولي والضروري للتوصل الى الحكمة.
إذا كان ياقوت الحموي (معجم الأدباء) قد وجد عبارة ممتازة لوصف شخصية التوحيدي عندما قال بأنه (اديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء) فإن محمد اركون في كتابه الضخم (نزعة الأنسية في الفكر العربي ١٩٩٧) يؤكد بأن مسكويه لا يمتلك الثقافة اللغوية نفسها او الأسلوب الأدبي الرائع نفسه الذي كان يمتلكه التوحيدي إلا انه يقترح أستحقاقه في الأقل لقب "فليسوف الأدباء" فهو من بين كل مثقفي جيله أحد اولئك الذين ساهموا أكثر من غيرهم في نشر بعض الأهتمامات ذات الطبيعة الفلسفية وقد تم التراسل بين "فيلسوف الأدباء" أي مسكويه، و "أديب الفلاسفة" أي التوحيدي ونتج عن ذلك كتاب "الهوامل والشوامل" وألف مسكويه كتبه الأخرى، ألف منتخبات من الحكمة: "الحكمة الخالدة" وتاريخاً كونيا: "تجارب الأمم" ورسالة في الأختلاف "تهذيب الأخلاق" أضافة الى "الفوز الأصغر" و "ألفوز الاكبر" وكتابه "المستوفي في الشعر" ولا ريب في ان كتاب "تهذيب الأخلاق" عام ٣٧٥-٣٧٦ هجرية/ ٩٨٦. ٩٨٧ ميلادية (حققه قسطنطين زريق. بيروت ١٩٦٦) هو الكتاب الأهم في انتاج مسكويه فهو يحتل خاتمة مساره، وتتويجاً لسنوات عديدة من القراءة، والمراقبة والتأمل العميق وهو يجمع بين دفتيه كل المسائل والموضوعات المعالجة في مؤلفاته الأخرى ولكنها هنا مكثفة ومرتبة بطريقة معينة لكي تشكل نظاماً من البناء الفلسفي ذي الضخامة التي لا يستهان بها. يقول محمد جلوب فرحان: ان مسكويه انتصر في كتابه "تهذيب الأخلاق" للفعل الثقافي.. تضمن فعل مجابهة للمرتكزات النصية للبرنامج التربوي التقليدي عبر برنامج تربوي يرجح الفلسفة وينحاز لمباحثها (الجدل الثقافي عند العرب ١٩٨٧).
على ضوء ذلك يمكن وصف مسكويه بانه مفكر مختص بصناعة الأخلاق (أو علم الأخلاق كما في مصطلحاتنا الحديثة) وقد ألح كثيراً على تأسيس الأخلاق على الميتافيزيقا وعلم الكون، وكانت هذه الصناعة هي الأقرب الى نفسه، يقول مسكويه في تبرير ذلك:
((لما كان للجوهر الانساني فعل خاص لا يشاركه فيه شيء من موجودات العالم كما بيناه فيما تقدم، وكان الأنسان أشرف موجودات عالمنا ثم لم تصدر أفعاله عنه بحسب جوهره... وكان عدمه أروح من وجوده، وجب ان تكون الصناعة التي تعنى بتجويد أفعال الأنسان حتى تصدر عنه افعاله كلها تامة كاملة بحسب جوهره، ورفعه عن رتبة الأخس التي يستحق المقت بها من الله عزوجل والحصول في العذاب الأليم، أشرف الصناعات وأكرمها) (تهذيب الأخلاق).
كان درس الفلاسفة العرب والمسلمين في فترات ازدهارهم، ومن بينهم شيخنا مسكويه، يتركز في بحثهم الدؤوب عن أجوبة نهائية ويقينية لأشكاليات زمنهم، لم يتضمن درسهم إثارة أسئلة تحرك الهمم دائماً نحو المزيد من البحث والفتوحات المعرفية وهنا يكمن الفرق بينهم وبين فيلسوف اليونان الكبير ارسطو ولم تفهم النصوص الأغريقية لذاتها وبذاتها بقدر ما كانت تفهم على ضوء حاجات المجتمع العربي الأسلامي في ذلك العصر وتلبية هذه الحاجات بالذات، لذا تجلت الحكمة (الفلسفة) لديهم على انها طريق للنجاة في الدار الآخرة، اكثر مما هي بحث حر، متعثر، متردد، منفتح، لا ينتهي أبداً.

مشروع (المدى).الكتاب للجميع

طه الراوي في (بغداد مدينة السلام)

باسم عبد الحميد حمودي

ضمن مشروعها الرائد في اعمام الثقافة الرصينة ونشر المنتخبات الفكرية الاساسية منها، اصدرت جريدة (المدى) كتاب (بغداد مدينة السلام) للعلامة المرحوم طه الراوي وهو يحمل الرقم (١١) ضمن سلسلة (الكتاب للجميع) التي تحرص مؤسسة (المدى) على اصدار كتاب شهري منها في صباح اليوم الخامس من كل شهر.
ويعد هذا الكتاب شبه مفقود في خزانة المكتبات العربية، فقد اصدرته دار المعارف بمصر ضمن سلسلة (اقرأ) برقم (٢٧) وبدون تاريخ لكن اصداره ينحصر بين عامي ١٩٤٥-١٩٤٨، أي قبل اصدار مؤسسة (المدى) الحالي بحوالي الستين عاما وهو الكاتب العراقي الوحيد الذي صدر له ضمن هذه السلسلة الشهرية، وقد اشرفت على اصداره ايامها لجنة متخصصة مكونة من الاساتذة د. طه حسين وعباس محمود العقاد وانطون الجميل وفؤاد صروف وكتاب (بغداد مدينة السلام) سياحة فكرية وسياسية ومعمارية وفولكلورية في شؤون (بغداد) مدينة وحضارة وعاصمة ووجوداً اثاريا قبل قيامها كمدينة خلاقة وعاصمة حكم زمن المنصور العباس سنة ١٤٥هـ.
ويبدأ المؤلف كتابه بتمهيد في اسس تسمية بغداد والاشتقاق من هذا الاسم ومعانيه مورداً اراء متعددة ومختلفة، بل ومتناقضة لا تخلو من طرافة، ومن هذه الاسماء (بعداد، بغداذ، بعدين، معذين..الخ) ومن معاني الاسماء "بستان صنم، مدينة الله" فضلاً عن المعاني (الحديثة) التي نشأت بعد قيام مدينة المنصور حيث سميت (الزوراء) و (دار السلام) و (مدينة السلام).
وقد شمل التمهيد خبر البناء وسبب اختيار المكان، ثم اتى الفصل الاول من الكتاب بعنوان (شذرات من سجايا البغداديين وشمائلهم) ناسبا الى البغداديين الظرف والميل للطرب والعناية بالنظافة والسخاء والاريحية وحسن المناظرة والجد والجلد في طلب العلوم والعصبية الوطنية وهي صفات مجتمع المدينة الكبرى المتحضر، ثم اورد شذرات طريفة من الاقوال في بغداد شعراً ونثراً، وجاء الفصل الثاني بعنوان (خلاصة التاريخ السياسي لبغداد) منذ تأسيسها زمن المنصور حتى عهد الملك الصغير فيصل الثاني وهو تاريخ مختصر يلتزم التعريف لا التحليل والتفصيل، وأتي الفصل الثالث والاخير وهو الفصل الاوسع من الكتاب بعنوان (الخطط والآثار) ليصور جزءاً من التاريخ الحضاري والفكري لبغداد عبر التاريخ وما حوته من مدارس وجامعات ودور عبادة ومعاهد علم ومتاحف وخزائن كتب وجسور ومنافع اخرى واساتذة في العلوم اللسانية والفقهية والطبية لكنه ما أن يصل الى الادب يقف عند الشعر والشعراء بشكل مختصر فالموضوع اوسع من ان تحويه ثلاث صفحات تنهي عملية الابداع الشعري بالشاعر احمد الصافي النجفي لكن زمن اصدار الكتاب كان بعيداً عن زمن ثورة الشعر الحديث على يد الملائكة . السياب وبذلك يظل كتاب العلامة الراوي سرداً نافعاً ومختصراً يقدم خلاصة للشكل المعماري والفكري والتاريخي لبغداد عبر العصور.